الفقه الإسلامي.. والامتداد الرسالي

قراءة تاريخية للفكر الشيعي

■■ الشيخ زكريا داوود*

صفوان بن يحيى.. الفقه والإمتداد الرسالي

يجمع الرجاليون على وثاقة وعظم الدور الذي قام به صفوان في الدعوة لدين الله وتوضيح مفاهيم العقيدة، ومحاربة الغلو والمذاهب الفاسدة، والأفكار المنحرفة التي راجت في المجتمع العراقي آنذاك، وقد شكل صفوان مدرسة فقهية عقائدية وساهم في تشكيل العقل الشيعي في تلك الفترة، فعند البحث عن المشهد المعرفي الكوفي والبغدادي يمكننا أن نلحظ شدة التأثير الذي تركه الرجل فيها، فقد كانت علاقاته متشعبة مع كل الطبقات الفكرية والمعرفية.

صفوان بن يحيى البجلي الكوفي بياع السابري (ت ٢١٠هـ) هكذا يعرفه علماء الرجال، يقول النجاشي: ثقة ثقة، عين، روى أبوه عن أبي عبدالله عليه السلام، وروى هو عن الرضا عليه السلام، وكانت له عنده منزلة شريفة، ذكره الكشي في رجال أبي الحسن موسى عليه السلام، وقد توكل للرضا وأبي جعفر عليهما السلام، وسلم مذهبه من الوقف، وكانت له منزلة شريفة من الزهد والعبادة، وكانت الواقفة بذلوا له مالاً كثيراً[1].

شغل الحقل الإبستومولوجي أغلب جهد فقهاء مدرسة الوحي والإمامة، ويمكننا أن نرجع ذلك لثلاثة عناصر رئيسة هي:

---

* رئيس التحرير - عالم دين وباحث - السعودية.

١- سعي السلطة الزمنية لبلورة بديل يقف أمام مدرسة الوحي والإمامة.

٢- نشوء اتجاهات فكرية استبطنت نظم معرفية شاملة ناقضت في العديد من متبنياتها مدرسة الوحي والإمامة.

٣- تأثر بعض عامة الجماعة بذينك الأمرين (السلطة + الاتجاهات الفكرية)، وتبنوا بعض أفكارها.

أمام هذه التحديات كان لابد لفقهاء مدرسة أهل البيت عليهم السلام من تشكيل وعي عامة الجماعة وفق متبنيات واضحة قوية وجذابة، وقادرة على المجابهة، وفعلاً تشكلت منظومة معرفية شاملة استطاعت جذب الآخر وضمه للجماعة، وتحصين الذات وتقوية مناعتها، ولم يكن هذا الجهد مرحلياً، أو ناتجاً من خشية الآخر بقدر ما هو قناعة داخلية بضرورة تصحيح وعي العامة، لذا نشهد بواكير هذا الجهد قبل السقيفة، وتنامى بعدها، وكان الرواد الأوائل هم، الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم (٥٧٠- ٦٣٢م/١١هـ) وعلي بن أبي طالب عليه السلام (ت ٤٠هـ/٦٦١م)، وسلمان الفارسي (ت ٣٥هـ/٦٥٥م)، وأبو ذر الغفاري جندب بن جُنادة (ت٣٢هـ/٦٥٢م)، والمقداد بن الأسود (ت ٣٣هـ/٦٥٣م)، وعمار بن ياسر (ت ٣٧هـ/٦٥٧م)، وحذيفة بن اليمان (ت ٣٦هـ/٦٥٦م)، وعبدالله بن عباس المعروف بحبر الأمة(ت ٦٨هـ/ ٦٨٧م)، وغيرهم ممن ناصروا علياً عليه السلام، لأنه يمثل محور الحق وقطب الرحى في مشروع الحفاظ على الرسالة.

وقد تنامى التهديد الفكري والإيديولوجي مع دخول الثقافة الوافدة في المجابهة تجاه مدرسة الوحي والإمامة، وكانت السلطات تكثف جهدها كلما رأت اتساع دائرة الأتباع، لكن ما تملكه هذه المدرسة من عناصر القوة وما يميز منظومتها المعرفية من الدقة في الرؤية والواقعية في الفكر والعقلانية في الرؤى جعلها دائماً المتقدمة والمنتصرة، والأكثر جذباً وتألقاً، لذا نجد الكثير من المدارس الفكرية والفقهية والمعرفية اندثرت رغم دعم السلطة الزمنية لها، في حين بقيت مدرسة أهل البيت عليهم السلام رغم عداء السلطة لها وقتل ومطاردة أتباعها.

في مرحلة الصادق عليه السلام بدأ تبلور معايير ومفاهيم الفكر الإسلامي، وقد بدأ فقهاء مدرسة الوحي والإمامة في توضيح معالم المدرسة، وفي هذه المرحلة أسس هشام بن الحكم تلميذ الإمام الصادق عليه السلام الانطلاقة الأولى لنشأة علم الأصول، ولم يكن أحد من جميع فقهاء المدارس الأخرى قد بدأ بوضع التصورات التي تحكم نظرة الفقيه للنص الديني فقهياً وعقدياً، وقد توالت إبداعات الفقهاء بتوجيه الأئمة عليهم السلام، ولم تبدأ مرحلة الكاظم عليه السلام إلا بعد تكوين مبادئ ومعايير قادرة على توجيه الفكر الإسلامي لأتباع مدرسة الوحي والإمامة في حين بقيت المدارس الأخرى رهينة الحيرة والتخبط المفهومي والاصطلاحي ومن ثم الإيديولوجي الذي لازال الفقه والفكر السني حبيساً فيه، ونظرة متأملة لواقعنا

المعاصر ومدى تخبط الاتجاهات الفكرية السنية، ونشوء حالات الغلو والتطرف داخلها وعند أتباعها، فإن ذلك يكشف عن عدم قدرة ذلك الفكر على التفاعل مع الواقع المتغير ومعطياته، بعكس مدرسة الوحي والإمامة التي تحقق نجاحات فريدة وكبيرة وبالأخص عندما تتواصل حركة الحوار بينها وبين المدارس الأخرى.

مكانة صفوان عند الأئمة عليهم السلام

تنبع مكانة الشخص في مدرسة الوحي والإمامة مما يحققه في ذاته من صفات أخلاقية ولما يقوم به من دور في الواقع الحياتي للأمة، ولم يكن للحسب والنسب أهمية إذا كان الشخص فاقداً للصفات الأخلاقية والإيمانية والقيادية، فالدين لا يعرف المحاباة للنسب أو للحسب مع كونه لا يغفل هذه الأمور بشكل تام، وكان من يريد أن يرتقي في الواقع الاجتماعي ويحظى بمكانته المتميزة عند الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل بيته عليهم السلام لابد أن يحقق تلك الصفات الذاتية والموضوعية.

إن الإسلام سعى بكل قوة لتكريس ذهنية وعقلية ترتقي للتطور والتقدم، ولتحقيق ذلك كان لابد من تغيير الذهنية والعقلية الاجتماعية التي كانت تُعلي من شأن الشخص لمجرد كونه من تلك العائلة أو القبيلة، حتى وإن كانت صفاته الذاتية لا تؤهله لتلك المكانة أو المسؤولية، ونورد هنا رواية تاريخية توضح كيف غَيَّر الإسلام بعض العقليات التي انفتحت على الوحي واحتضنت قيم الدين، فأصبح الدين وقيمه هو أساس التفاضل الاجتماعي.

عن علي بن إبراهيم، عن عبد الله بن محمد بن عيسى، عن صفوان بن يحيى، عن حنان قال: سمعت أبي يروي عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان سلمان جالساً مع نفر من قريش في المسجد فأقبلوا ينتسبون ويرفعون في أنسابهم حتى بلغوا سلمان، فقال له عمر ابن الخطاب: أخبرني من أنت ومن أبوك وما أصلك؟ فقال: أنا سلمان بن عبد الله كنت ضالاً فهداني الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وآله، وكنت عائلاً فأغناني الله بمحمد صلى الله عليه وآله، وكنت مملوكاً فأعتقني الله بمحمد صلى الله عليه وآله هذا نسبي وهذا حسبي. قال: فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلمان رضي الله عنه يكلمهم، فقال له سلمان: يا رسول الله ما لقيت من هؤلاء جلست معهم فأخذوا ينتسبون ويرفعون في أنسابهم حتى إذا بلغوا إلي قال عمر بن الخطاب: من أنت وما أصلك وما حسبك؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله: فما قلت له يا سلمان؟ قال: قلت له: أنا سلمان بن عبد الله كنت ضالا فهداني الله عز ذكره بمحمد صلى الله عليه وآله، وكنت عائلاً فأغناني الله عز ذكره بمحمد صلى الله عليه وآله، وكنت مملوكا فأعتقني الله عز ذكره بمحمد صلى الله عليه وآله هذا نسبي وهذا حسبي. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا معشر قريش إن حسب الرجل دينه، ومروءته خلقه وأصله عقله، وقال الله عز وجل: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ثم قال النبي صلى الله عليه وآله لسلمان: ليس لأحد من هؤلاء

عليك فضل إلا بتقوى الله عز وجل وإن كان التقوى لك عليهم فأنت أفضل[٢].

في هذا النص الديني والذي ينقل لنا واقعاً ثقافياً وقيمياً كان سائداً في المجتمع الذي يقوده رسول الله ﷺ، يبرز لنا القيم التفاضلية التي يؤمن بها نخبة من ذلك المجتمع، ثم يبرز لنا كيف عالج الرسول تلك الظاهرة الجاهلية وسعى لمحوها من العقلية المجتمعية عبر وضع قيم تفاضل واقعية وحقيقية تنطلق من القرآن الكريم الهدى الذي لا يأتيه الباطل، ونلحظ كذلك في سند هذا النص يقع صفوان بين رواته، ومن الطبيعي أن يتأثر بتلك القيم التي يبرزها هذا النص ويؤسس لها في الواقع الحياتي لأمة ومجتمع يريد النهوض وتأسيس حضارة قائمة على قيم ومبادئ تجعل القيم التفاضلية هي العقل والدين والأخلاق الحسنة وما ينتجه هذا الشخص من عمل مفيد، وليست أمراً وهمياً قائماً على مكانة الآباء أو النسب القبائلي، فكل تلك لا تفيد في وضع أسس التحضر الاجتماعي وقيام مدنية القانون والاحترام الحقيقي للجهد والذات البشرية.

ومن ذات المنطلق القيمي أخذ صفوان بن يحيى يبني شخصيته الاجتماعية بما تحمل من صفات علمية ومعرفية وأخلاقية وإيمانية، وكانت المعرفة بعلوم أهل البيت عليهم السلام هي المدخل الحقيقي نحو التكامل في كل مجالات الحياة، لأنهم عدل القرآن والعارفين بناسخه ومنسوخه ومحكمه من متشابهه، كما صرح بذلك النص النبوي المعروف بحديث الثقلين، وكما ورد في النص المروي عن الباقر عليه السلام، عن أبي مريم الأنصاري، قال، قال لي أبو جعفر عليه السلام: «قل لسلمة بن كهيل والحكم بن عيينة شرِّقا أو غرِّبا لن تجدا علماً صحيحاً إلا شيئا خرج من عندنا أهل البيت»[٣].

والأمر الآخر الذي يوصل نحو التكامل المعرفي هو اتباع الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام الذين وردت روايات عديدة في وجوب اتباعهم والقبول عنهم، وقد ورد في الزيارة الجامعة المروية عن الإمام علي بن محمد الهادي عليهما السلام قوله: من أراد الله بدأ بكم، ومن وحَّده قَبِلَ عنكم، ومن قصده توجَّه بكم[٤].

من كل ما سبق يمكن القول: إن التكامل المعرفي والأخلاقي والديني لا يمكن أن يحققه الإنسان في ذاته إلا عبر الأمور التالية:

١- الاتصال المعرفي بالرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام.

٢- الاتِّباع الكامل لتلك المعارف والعلوم الصادرة عنهم.

٣- الاقتداء بهم واتِّباع أوامرهم.

وقد نال صفوان تلك المكانة السامية عند أهل البيت عليهم السلام ليس لنسبه أو حسبه بل لأنه حقق في ذاته مواصفات العالم الفقيه العارف بعلوم أهل البيت عليهم السلام، والعابد الزاهد، والمناضل المكافح، ولكل ذلك فقد وردت روايات عديدة تمدح صفوان وتشيد بمكانته وتبرز أسباب حصوله على تلك المكانة المميزة، وفيما يلي نورد تلك النصوص:

١- عن سعد، عن أيوب بن نوح، عن جعفر بن محمد بن إسماعيل، قال: أخبرني معمر بن خلاد، قال: رفعت ما خرج من غلة إسماعيل بن الخطاب، بما أوصى به إلى صفوان بن يحيى، فقال: رحم الله إسماعيل بن الخطاب بما أوصى به إلى صفوان بن يحيى ورحم صفوان فإنهما من حزب آبائي عليهم السلام، ومن كان من حزبنا أدخله الله الجنة.

٢- حدثني محمد بن قولويه، قال: حدثني سعد بن عبد الله، قال: حدثني أبو جعفر أحمد بن محمد بن عيسى، عن رجل، عن علي بن الحسين بن داود القمي قال: سمعت أبا جعفر الثاني عليه السلام يذكر صفوان بن يحيى ومحمد بن سنان بخير، وقال: رضي الله عنهما برضاي عنهما فما خالفاني قط، هذا بعد ما جاء عنه فيهما ما قد سمعته من أصحابنا.

٣- عن أبي طالب عبد الله بن الصلت القمي، قال: دخلت على أبي جعفر الثاني عليه السلام في آخر عمره فسمعته يقول: جزى الله صفوان بن يحيى ومحمد بن سنان وزكريا بن آدم عني خيراً فقد وفوا لي، ولم يذكر سعد بن سعد، قال: فخرجت فلقيت موفقاً، فقلت له: إن مولاي ذكر صفوان ومحمد بن سنان وزكريا بن آدم وجزاهم خيراً، ولم يذكر سعد ابن سعد. قال: فعدت إليه، فقال: جزى الله صفوان بن يحيى ومحمد بن سنان وزكريا ابن آدم وسعد بن سعد عني خيراً فقد وفوا لي.

٤- حدثني محمد بن قولويه، قال: حدثني سعد، عن أحمد بن هلال، عن محمد بن إسماعيل بن بزيع، أن أبا جعفر عليه السلام كان لعن صفوان بن يحيى ومحمد بن سنان، فقال: إنهما خالفا أمري، قال، فلما كان من قابل، قال أبو جعفر عليه السلام لمحمد بن سهل البحراني: تولَّ صفوان بن يحيى ومحمد بن سنان فقد رضيت عنهما.

٥- وعنه، عن سعد، عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن معمر بن خلاد، قال، قال أبو الحسن عليه السلام: ما ذئبان ضاريان في غنم قد غاب عنها رعاؤها بأضر في دين المسلم من حب الرياسة، ثم قال: لكن صفوان لا يحب الرياسة.

٦- محمد بن مسعود، قال: حدثني علي بن محمد، قال: حدثني أحمد بن محمد، عن رجل، عن علي بن الحسين بن داود القمي، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يذكر صفوان ابن يحيى ومحمد بن سنان بخير، وقال: رضي الله عنهما برضاي عنهما، فما خالفاني وما خالفا أبي عليه السلام قط[٥].

صفوان وممارسة الدور الرسالي

نشأ صفوان في مجتمع يعج بالتيارات والاتجاهات الفكرية، وكانت الكوفة تخضع للعديد من المؤثرات، وبما أنها مركز وحاضرة التشيع في العراق فإن السلطات كانت ترقب كل حركة، وتسعى للاستفادة من الحركة الفكرية في دعم سياساتها السلطوية، فكانت تشجع الفقهاء والعلماء على تأسيس أراء فكرية وعقدية تناقض بها أصول ومبادئ مدرسة الوحي

والإمامة، ولا تكاد تبصر بفقيه أو عالم يمكن التأثير عليه وجذبه إلى جانب السلطة إلا وتبادر بكل ما تملك من وسائل ترغيب أو ترهيب لتوظيفه في الحركة السجالية ضد مدرسة الوحي والإمامة.

وكانت الكوفة رغم غلبة الطبع الشيعي عليها إلا أن هناك العديد من الاتجاهات الفكرية المخالفة، سواء دينياً أو فكرياً، وقد نافست الكوفة بغداد عاصمة الدولة العباسية، وتميزت في مدارسها اللغوية والفقهية والكلامية، وفي فترات تاريخية حدث سجال وجدال أبرز فيه كل اتجاه قواه العلمية، وأول أمر يمكن نقاشه واشتداد الجدال فيه هي قضية الإمامة، التي شكلت محور الجدل السياسي والعقائدي بين مدرسة الوحي والإمامة وبين المدارس الكلامية الأخرى.

وفي الكوفة بعد استشهاد الإمام موسى الكاظم عليه السلام، أصبح الجدل الكلامي أكثر حدة وخطورة، حيث أسس حمزة البطائني أحد أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام، فرقة سميت فيما بعد بالواقفة، وعُدَّت هذه الفترة التاريخية من أخطر مراحل التاريخ الشيعي، حيث استدرج البطائني العديد من الأصحاب، وأصبحت الفرقة لها امتداداتها الجغرافية والاجتماعية، ففي مصر والشام والكوفة والمدينة وفارس، كانت هذه الفرقة تتمدد وتشتد، ولم يوقفها إلا أمثال صفوان بن يحيى الذي سعى البطائني إلى استدراجه إلى صفه، فقد قال النجاشي (ت ٤٥٠هـ) عند ترجمة صفوان: كوفي، ثقة ثقة، عين، روى أبوه عن أبي عبد الله عليه السلام، وروى هو عن الرضا عليه السلام، وكانت له عنده منزلة شريفة، ذكره الكشي في رجال أبي الحسن موسى عليه السلام، وقد توكَّل للرضا وأبي جعفر عليهما السلام، وسَلِمَ مذهبه من الوقف، وكانت له منزلة من الزهد والعبادة، وكان جماعة الواقفة بذلوا له مالاً كثيراً[٦].

ويمكننا أن نلحظ الدور الكبير الذي قام به صفوان في الدعوة للحق، في الأمور التالية:

أولاً: توضيح الامتداد النبوي المتمثل في الإمام الرضا عليه السلام:

وردت الكثير من الروايات التي تحدد الخليفة بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، بعضها يحدد الاسم كما في الروايات الواردة في ذكر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وبعضها يحددهم بالوصف الذي لا يمكن أن ينطبق على غير الأئمة الاثني عشر من أهل البيت عليهم السلام، وهناك أحاديث عامة تحدد عددهم وأنهم اثنا عشر خليفة، وقد روى ذلك أغلب المحدثين السنة والشيعة، بل أصبح حديث الاثني عشر خليفة من الأحاديث المتفق على صحة صدورها ممن لا ينطق عن الهوى، رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد روى كبار المحدثين السنة هذا الحديث كصحيح مسلم، فعن حصين عن جابر بن سمرة قال: «دخلت مع أبي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسمعته يقول: إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة قال: ثم تكلم بكلام

خفي عليَّ، قال: فقلت لأبي ما قال؟ قال: كلهم من قريش»[٧].

ومع أن عدد الأئمة عليهم السلام كان معروفاً ومركوزاً في أذهان الكثيرين إلا أن العديد من العوامل السياسية أو الاقتصادية أو الفكرية تُغيِّب هذا المفهوم عن أذهان عامة الناس كما هو حادث الآن، فالقليل من المفكرين أو المثقفين يفكر في معنى الحديث ومصداقه الخارجي، هذا فضلاً عن العامة التي تلعب المذاهب السلفية دوراً كبيراً في تغييب هذا المفهوم النبوي عنهم، أما تاريخياً فقد حدث جدل واسع في تحديد هذا المفهوم والمصداق الصحيح له، وكان المنطق والبرهان دائماً مع ما يذهب إليه الشيعة الاثنى عشر، الذين يحددون الأئمة في علي وأبنائه آخرهم محمد بن الحسن المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

وفي المرحلة التي عاشها صفوان بعد استشهاد الإمام الكاظم عليه السلام كان المال وحب الدنيا أهم الأسباب في تغييب هذا المفهوم الرسالي عن العقلية العامة، وكان على صفوان أن يمارس دوراً بارزاً في الحفاظ على استمرار المفهوم الرسالي، ولهذا عُدَّ صفوان أحد الأعمدة الذين نادوا بإمامة علي الرضا عليه السلام بعد أبيه، ويبدو أنه كان معروفاً باختصاصه بالإمام الرضا عليه السلام حتى قبل استشهاد الإمام الكاظم عليه السلام كما نلحظ ذلك في المنازعة التي جرت بين الإمام الرضا عليه السلام وأخيه العباس الذي اتهم الإمام عليه السلام بأخذ الإرث عنهم، حيث قال العباس: وإنك لتعرف أني أعرف صفوان بن يحيى بياع السابري بالكوفة ولئن سلمت، لأغصصنه بريقه وأنت معه[٨].

ومن النصوص التي نقلها صفوان والتي تبرز حدة الصراع بين الواقفة وأتباع مدرسة الوحي والإمامة، ومدى تأثير أفكار الواقفة على الفقهاء والعلماء فضلاً عن العامة، ما نقله الكافي، عن صفوان بن يحيى، عن أبي جرير القمي قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: جعلت فداك قد عرفت انقطاعي إلى أبيك ثم إليك، ثم حلفت له: وحق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحق فلان وفلان حتى انتهيت إليه بأنه لا يخرج مني ما تخبرني به إلى أحد من الناس، وسألته عن أبيه أحي هو أو ميت؟ فقال: قد والله مات، فقلت: جعلت فداك إن شيعتك يروون: أن فيه سنة أربعة أنبياء، قال: قد والله الذي لا إله إلا هو هلك، قلت: هلاك غيبة أو هلاك موت؟ قال: هلاك موت، فقلت: لعلك مني في تقية؟ فقال: سبحان الله، قلت: فأوصى إليك؟ قال: نعم، قلت: فأشرك معك فيها أحداً؟ قال: لا، قلت: فعليك من إخوتك إمام؟ قال: لا، قلت: فأنت الإمام؟ قال: نعم[٩].

وفي مثل هذا الوضع الحرج شكَّل صفوان هو وجماعة حركة مناهضة للتيار الواقفي، وكان من أعمدة حركة صفوان: عبدالله بن جندب، وعلي بن النعمان، ومارسوا دوراً كبيراً في التصدي للفكر الواقفي، وانتشال العديد من الأصحاب من وهدة السقوط في مستنقع الواقفة، أمثال محمد بن سنان الذي عرف بقوته في الجدال وشدته على خصومه، فقد نقل عبد الله بن محمد بن عيسى الأسدي الملقب بـ(بنان) قال: كنت مع صفوان بن يحيى

بالكوفة في منزل إذ دخل علينا محمد بن سنان فقال صفوان: هذا ابن سنان لقد هَمَّ أن يطير غير مرة فقصصناه حتى ثبت[١٠].

ثانياً: الحفاظ على التماسك الداخلي لمدرسة الوحي والإمامة:

التعايش والتماسك الداخلي للشيعة في الكوفة تعرض في الكثير من الفترات التاريخية لضربات موجعة من قبل السلطة السياسية والتيارات الفكرية كالخوارج الذين شنوا حرباً ضد خليفة المسلمين، كما كان الساسة الأمويون والعباسيون عبر الحجَّاج وعبيدالله بن زياد وغيرهم مارسوا فتكاً شديداً بالشرائح الاجتماعية المنتمية لمدرسة الوحي والإمامة، وفي عهد هارون العباسي شنت السلطة حركة واسعة لتصفية قيادات الشيعة في الكوفة وبغداد والبصرة، وبسبب سياسة البطش نزح العديد من أهل الكوفة إلى بلاد فارس هرباً من تلك السياسة، بل لم تتوقف سياسة البطش على حواضر الشيعة فقط، بل تعدَّت لتطال قيادات أهل البيت عليهم السلام في كل بقعة، ففي بداية تكوين الدولة العباسية سعى أبو جعفر المنصور لتصفية كل من يتوجس منه خيفة، ففي رواية ينقلها صفوان توضح تلك السياسة والقسوة التي تمارسها الدولة تجاه مدرسة الوحي والإمامة.

عن محمد بن عبد الجبار، عن صفوان بن يحيى، عن جعفر بن محمد بن الأشعث قال: قال لي: أتدري ما كان سبب دخولنا في هذا الأمر ومعرفتنا به؟ وما كان عندنا منه ذكر ولا معرفة شيء مما عند الناس، قال: قلت له: ما ذاك؟ قال: إن أبا جعفر - يعني أبا الدوانيق - قال لأبي، محمد بن الأشعث: يا محمد ابغ لي رجلاً له عقل يؤدي عني فقال له أبي: قد أصبته لك، هذا فلان ابن مهاجر خالي، قال: فأتني به، قال: فأتيته بخالي فقال له أبو جعفر: يا بن مهاجر خذ هذا المال وأت المدينة، وأت عبد الله بن الحسن بن الحسن وعدة من أهل بيته فيهم جعفر بن محمد فقل لهم: إني رجل غريب من أهل خراسان وبها شيعة من شيعتكم وجهوا إليكم بهذا المال، وادفع إلى كل واحد منهم على شرط كذا وكذا، فإذا قبضوا المال فقل: إني رسول وأحب أن يكون معي خطوطكم بقبضكم ما قبضتم، فأخذ المال وأتى المدينة فرجع إلى أبي الدوانيق ومحمد بن الأشعث عنده، فقال له أبو الدوانيق: ما وراءك؟ قال: أتيت القوم وهذه خطوطهم بقبضهم المال خلا جعفر بن محمد، فإني أتيته وهو يصلي في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فجلست خلفه وقلت حتى ينصرف فأذكر له ما ذكرت لأصحابه، فعجل وانصرف، ثم التفت إليَّ فقال: يا هذا اتق الله ولا تُغْرِ أهل بيت محمد فإنهم قريبوا العهد بدولة بني مروان وكلهم محتاج، فقلت: وما ذاك أصلحك الله؟ قال: فأدنى رأسه مني وأخبرني بجميع ما جرى بيني وبينك حتى كأنه كان ثالثنا قال: فقال له أبو جعفر: يا أبن مهاجر! اعلم أنه ليس من أهل بيت نبوة إلا وفيه مُحدَّث وإن جعفر بن محمد محدثنا اليوم، وكانت هذه الدلالة سبب قولنا بهذه المقالة[١١].

وأمام هذه السياسة كان لابد من تحديد السبل التي تضمن الحفاظ على أتباع مدرسة الوحي والإمامة، فهناك التيارات الفكرية التي تسعى لبث فكرها وسط الأتباع وهناك السلطة التي تأخذ كل من يتهم بكونه موالياً لأهل البيت عليهم السلام، ولتحقيق الوحدة الداخلية كان لابد من بث مفاهيم مدرسة الوحي والإمامة وتربية جيل يحمل تلك المسؤولية، والأمر المهم في الحفاظ على التماسك هو إشاعة تلك الأخلاقيات التي تؤسس للتعايش والتعاون والتراحم بين أفراد المجتمع، ففي مثل هذا الواقع من الطبيعي أن يكثر الفقر والحاجة بين الناس، ولتجاوز مثل هذه المحن من الضروري إشاعة ثقافة التكافل الاجتماعي والاقتصادي بين عامة المجتمع، وسوف نورد هنا نصاً واحداً رواه صفوان يؤسس من خلاله للتعايش والتكافل بين أبناء المجتمع.

عن صفوان بن يحيى، عن أبي أسامة زيد الشحام قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: اقرأ على من ترى أنه يطيعني منهم ويأخذ بقولي السلام وأوصيكم بتقوى الله عز وجل، والورع في دينكم، والاجتهاد لله، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وطول السجود، وحسن الجوار، فبهذا جاء محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أدوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها بَرًّا أو فاجرًا، فان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يأمر بأداء الخيط والمخيط. صلوا عشائركم واشهدوا جنائزهم، وعودوا مرضاهم، وأدوا حقوقهم. فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق الحديث وأدى الأمانة وحسن خلقه مع الناس قيل: هذا جعفري، فيسرني ذلك ويدخل عليَّ منه السرور، وقيل: هذا أدب جعفر. وإذا كان على غير ذلك دخل عليَّ بلاؤه وعاره، وقيل: هذا أدب جعفر، فو الله لحدثني أبي عليه السلام أن الرجل كان يكون في القبيلة من شيعه علي عليه السلام فيكون زينها، آداهم للأمانة، وأقضاهم للحقوق، وأصدقهم للحديث، إليه وصاياهم وودائعهم، تسأل العشيرة عنه فتقول: من مثل فلان إنه لآدانا للأمانة وأصدقنا للحديث[١٢].

ثالثاً: نشر فقه وتعاليم مدرسة الوحي والإمامة:

يبدأ شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي(ت ٤٦٠هـ) ترجمة صفوان بقوله: أوثق أهل زمانه عند أصحاب الحديث وأعبدهم[١٣]. ولمكانته في الوسط العلمي والاجتماعي في الكوفة والعراق عموماً فإن أكثر الكتب الرجالية ترجمت لصفوان، فقد ذكره ابن النديم، وابن حجر العسقلاني، والزركلي، وغيرهم. وكان صفوان معروفاً بالانقطاع لمدرسة الوحي والإمامة منذ بداية حياته، حيث لازم الإمام الكاظم عليه السلام، فتعلم وتربى على يديه وحفظ عنه الأحاديث، كما كان ملازماً للكثير من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام يأخذ عنهم الحديث والفقه وأصول الدين، ويحصي الرجاليون روايته عن أربعين فقهياً من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام إذ يبدو أنه لم يدرك الإمام الصادق عليه السلام بل عن البرقي أنه لم يدرك الإمام الكاظم عليه السلام الأمر الذي ينفيه السيد الخوئي في موسوعته (معجم رجال الحديث)، حيث

يؤكد على نفي ذلك بدليل رواياته الكثيرة عنه (عليه السلام)، وقد بلغ من أخذ عنهم الحديث أكثر من مائة محدث وفقيه.

ولاهتمام صفوان بعلوم أهل البيت (عليهم السلام)، فقد سعى لسماع الحديث وأخذه من كل مكان، فكان يسافر لذلك كثيراً، وقد ساعدته تجارته في جمع المال اللازم لتأمين مصاريف سفره، لكنه ما إن يحط رحله في المدينة حتى يصعب عليه الخروج منها لوجود الإمام الرضا (عليه السلام) فيها، ولوجود العديد من فقهاء مدرسة الوحي والإمامة الذين تتلمذوا عند الأئمة الطاهرين (عليهم السلام)، حتى أن وفاته كانت في المدينة عام ٢١٠هـ، وقد اهتم الإمام الجواد (عليه السلام) به حتى آخر لحظات حياته فبعث إليه بالكفن والحنوط من عنده، وأمر إسماعيل بن موسى الكاظم (عليه السلام) بالصلاة عليه، ودُفِنَ في البقيع.

لكن قبل ذلك مارس دوراً بارزاً في نشر الوعي الديني في الكوفة وبغداد والبصرة والمدينة، ويمكننا أن نوجز دوره في الجانب العلمي والمعرفي الذي قام به فيما يلي:

١- نشر تعاليم وفقه أهل البيت (عليهم السلام):

بلغت روايات صفوان بن يحيى (رضي الله عنه) أو ما وقع في إسنادها في كتب الحديث ما يقارب ألفاً ومائة وواحداً وثمانين مورداً[١٤]، وقد تعددت رواياته وشملت جميع أبواب الفقه من الطهارة إلى باب الدية، واعتمد عليها الفقهاء في استفادة الحكم الشرعي وتحديد وظيفة المكلف في العديد من المواضيع الهامة، كما قام بدور بارز في تشييد الصرح العقائدي، فقد روى العديد من الروايات فيما يخص الأصول الخمسة، التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد، ولما يحمل صفوان من علم وفقه فإنه أصبح موئلاً للعامة والخاصة وأصبح علماً يشار إليه، فقد قال عبد الله بن محمد بن عيسى الأسدي الملقب بـ(بنان): كنا ندخل مسجد الكوفة، وكان ينظر إلينا محمد بن سنان، ويقول: من أراد المعضلات فإليَّ، ومن أراد الحلال والحرام فعليه بالشيخ - يعنى صفوان بن يحيى[١٥]، وفيما يلي نورد بعض الروايات التي رواها صفوان في مسألة المعرفة:

عن صفوان بن يحيى، عن منصور بن حازم قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): إن الله أجل وأكرم من أن يُعرف بخلقه، بل الخلق يعرفون بالله، قال: صدقت، قلت: إن من عرف أن له ربًّا، فينبغي له أن يعرف أن لذلك الرب رضاً وسخطاً وأنه لا يعرف رضاه وسخطه إلا بوحي أو رسول، فمن لم يأته الوحي فقد ينبغي له أن يطلب الرسل فإذا لقيهم عرف أنهم الحجة وأن لهم الطاعة المفترضة[١٦].

عن صفوان بن يحيى، عن العلاء بن رزين عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: إن من عندنا يزعمون أن قول الله عز وجل: ﴿ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أنهم اليهود والنصارى، قال: إذن يدعونكم إلى دينهم! قال: - وأشار بيده إلى

صدره - نحن أهل الذكر ونحن المسؤولون[١٧].

٢- حفظ أحاديث أهل البيت عليهم السلام من الضياع:

قام صفوان بدور مؤثر وبارز في الحفاظ على علوم أهل البيت عليهم السلام من الضياع، ولتحقيق هذا الهدف نشط صفوان في اتجاهين أساسيين هما:

١- تأليف الكتب التي تحتوي أحاديث أهل البيت عليهم السلام.

٢- بناء جيل من المحدثين يواصل نشر تلك الأحاديث.

تعد كتب صفوان من الأصول الأربعمائة التي أخذ عنها أصحاب الكتب الأربعة الحديث، فقد بلغت الكتب التي ألفها صفوان ثلاثين كتاباً توزعت على جميع أبواب الفقه، وبعض هذه الكتب بقيت لفترة طويلة رأى بعضها النجاشي، ومن تلك الكتب التي رآها هي:

١- كتاب الوضوء.
٢- كتاب الصلاة.
٣- كتاب الصوم.
٤- كتاب الحج.
٥- كتاب الزكاة.
٦- كتاب النكاح.
٧- كتاب الطلاق.
٨- كتاب الفرائض.
٩- كتاب الوصايا.
١٠- كتاب الشراء والبيع.
١١- كتاب العتق والتدبير.
١٢- كتاب البشارات، نوادر[١٨].

بعض تلامذة صفوان ومن روى عنه

كان لصفوان حلقة درس ورواية، حيث كان يجلس في إحدى زوايا مسجد الكوفة، ويلتف حوله طلبة العلم ومن يبغي حفظ أحاديث العترة الطاهرة عليهم السلام، وكان كذلك مفزعاً للعامة والخاصة فيما يتعلق بأمور الحلال والحرام، وقد كثر الرواة عن صفوان ومن أخذ عنه الحديث لكننا سوف نورد بعض هؤلاء وهم:

١- عبد الرحمن بن أبي نجران، وهو من الثقات، يقول النجاشي: كان ثقة ثقة معتمداً على ما يرويه، له كتب كثيرة، وهو ممن روى عن الإمام الرضا عليه السلام، وكان أبوه يروي عن الإمام الصادق عليه السلام.

٢- الحسن بن محمد بن سماعة، ورد بهذا العنوان في إسناد خمسة وسبعين رواية.

٣- وإبراهيم بن هاشم أبو إسحاق القمي، عرفه الرجاليون بأنه أول من نشر حديث القميين بقم، وقد وصفه الكشي بأنه تلميذ يونس بن عبدالرحمن، لكن الخوئي ينفي هذه النسبة ويورد دليلاً قوياً، وهو عدم روايته أصلاً عن يونس بلا واسطة مع أنه من أكثر رواة الإمامية رواية على الإطلاق في جميع الطبقات حيث وصل عدد رواياته ستة آلاف وأربع مائة وأربعة عشرة، وبلغ عدد شيوخه الذين أخذ منهم مائة وستين، وقد وصفه الرجاليون بالوثاقة.

٤- أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي (ت٢٢١هـ)، وصفه الشيخ بأنه عظيم المنزلة عند الرضا عليه السلام، وهو من أصحاب الإجماع من الطبقة الثالثة، له كتب، وقد بلغت رواياته سبعمائة وثمانية وثمانين مورداً.

٥- وأحمد بن محمد بن عيسى الأشعري، له كتب منها كتاب التوحيد، وكتاب فضل النبي صلى الله عليه وآله، وكتاب المتعة، وكتاب النوادر، وثقه علماء الرجال، وعدوه من وجوه الطائفة في قم.

٦- وإسماعيل بن مهران، عُدَّ في أصحاب الصادق عليه السلام، وعده البرقي في أصحاب الرضا عليه السلام، قال الشيخ: له كتاب الملاحم وله أصل، بلغت رواياته بهذا الإسناد مائة وستة وعشرين مورداً[١٩].

٧- وأيوب بن نوح بن دراج النخعي أبو الحسين، كان وكيلاً لأبي الحسن وأبي محمد عليهما السلام، عظيم المنزلة عندهما مأموناً، وكان شديد الورع كثير العبادة، ثقة في رواياته، بلغ عدد ما رواه مائتين وواحداً وخمسين رواية، خمس وستون منها عن صفوان بن يحيى.

٨- الحسن بن الحسين اللؤلؤي، كوفي وثقه النجاشي وضعفه آخرون كالصدوق، وابن الوليد، ووصف بأنه مكثر في الرواية، وله كتب.

٩- الحسن بن علي بن يوسف بن بقاح، له كتب وقد روى عن أجلة من أصحاب الأئمة عليهم السلام.

١٠- الحسن بن علي الوشاء، وقد عرفه الرجاليون بأنه وجه من وجوه الطائفة، له كتب منها كتاب ثواب الحج والمناسك والنوادر، وله مسائل عن الرضا عليه السلام.

١١- الحسين بن سعيد الأهوازي، يعد من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام، وقد صنف هو وأخوه الحسن ثلاثين كتاباً وصفها الرجاليون بأنها جيدة، كما وصفو الحسين بأنه ثقة معتمد عليه.

١٢- الحسين بن المختار القلانسي، اتهم بالوقف، لكن عدم ذكر النجاشي مذهبه وكذا الشيخ مع اهتمامهم بهذا الأمر ينفي عنه التهمة، وقد عد من ثقات الإمام الكاظم عليه السلام، له كتاب يرويه عنه حماد بن عيسى، وصف بأنه مكثر في رواية الحديث.

١٣- السندي بن محمد البزاز الكوفي، بلغت رواياته أربعاً وخمسين.

١٤- سهل بن زياد، له كتاب.

١٥- العباس بن عامر بن رباح أبو الفضل الثقفي القصباني، له العديد من الكتب وقد وقع العباس في إسناد مائة وتسع عشرة رواية.

١٦- والعباس بن معروف القمي، وصفه النجاشي في رجاله: مولى جعفر بن عبدالله الأشعري، قمي، ثقة، له كتاب الآداب وله نوادر[٢٠]، وقع بهذا العنوان في إسناد مائتين وتسع وثلاثين.

١٧- عبد الله بن الصلت القمي، وثقه النجاشي وقال بأنه مسكون إلى روايته، له كتاب التفسير.

١٨- علي بن أحمد بن أشيم، ذكره الشيخ مرتين وقال في الثانية: إنه مجهول، ورد بهذا العنوان في إسناد كثير من الروايات بلغت تسعاً وخمسين.

١٩- علي بن الحكم الأنباري، وقع في إسناد الكثير من الروايات بلغت ألفاً وأربعمائة واثنتين وستين.

٢٠- علي بن السندي، حكم البعض بوثاقته كالوحيد، وضعفه آخرون.

٢١- علي بن مرداس، خرَّج الكليني بعض رواياته في كتابه الكافي.

٢٢- علي بن موسى الكمنداني، خرج له الكليني في الكافي والشيخ في الاستبصار.

٢٣- العمركي بن علي بن محمد البوفكي النيسابوري، من أصحاب الإمام العسكري عليه السلام، له كتابان، كتاب الملاحم وكتاب النوادر. روى عنه العديد من الأصحاب، بلغت الروايات التي وقع في إسنادها مائة وثمانية وأربعين مورداً.

٢٤- الفضل بن شاذان النيسابوري (ت ٢٦٠هـ)، من علماء وفقهاء مدرسة الوحي والإمامة، ثقة له مكانة عند الأئمة الطاهرين عليهم السلام، له العديد من الكتب في نقد الفكر الآخر والرد على آراء مدرسة الرأي.

٢٥- محمد بن أبي الصهبان، من أصحاب الإمام الجواد والهادي والعسكري عليهم السلام، وقد وقع بهذا العنوان في سبعة وعشرين مورداً.

٢٦- محمد بن إسماعيل بن بزيع، يذكره الكشي في عداد الوزراء.

٢٧- محمد بن الحسين بن أبي الخطاب، أبو جعفر الزيات الهمداني، جليل القدر ثقة، وأحد الشخصيات النافذة والمحترمة لدى الفقهاء، له الكثير من الكتب، وقد روى مائة وتسعاً وثمانين رواية.

٢٨- محمد بن خالد البرقي، وقد وقع بهذا العنوان في إسناد سبعة وأربعين مورداً.

٢٩- محمد بن خالد بن عمر الطيالسي (ت ٢٥٩هـ)، كان يسكن الكوفة في صحراء جرم، له كتاب نوادر، ورد بهذا العنوان في إسناد ثلاث عشرة رواية.

٣٠- محمد بن عبد الحميد بن سالم العطار، ثقة وصفه النجاشي بأنه من أصحابنا

الكوفيين، عده البعض من أصحاب الرضا عليه السلام، وقال آخرون بأنه من أصحاب العسكري عليه السلام، ولا تنافي بينهما، له كتاب نوادر.

٣١- محمد بن عيسى بن عبيد بن يقطين، من أجلاء الأصحاب، له كتب، وقد وثقه الجميع ما عدا الشيخ فقد مال إلى تضعيفه، لكن السيد الخوئي رد التضعيف، وبنى على وثاقته وقال: إنه أمر متسالم عليه عند الفقهاء، له العديد من الكتب، وقد وصفه النجاشي بأنه حسن التصانيف.

٣٢- منصور بن العباس، وقع بهذا العنوان في إسناد تسع وخمسين رواية.

٣٣- يعقوب بن يزيد بن حماد الأنباري السلمي، قال النجاشي: أبو يوسف روى عن أبي جعفر الثاني عليه السلام، وانتقل إلى بغداد، وكان ثقة صدوقاً، له كتاب البداء، وكتاب المسائل، وكتاب نوادر الحج، وكتاب الطعن على يونس. ووصفه الشيخ بالكاتب وأنه كثير الرواية، وقد وقع بهذا العنوان في إسناد ثلاثمائة وست وخمسين رواية[٢١].

البزنطي من التشكيك إلى التأصيل

كان العديد من الفقهاء والمحدثين الشيعة عام ١٨٣هـ في المدينة المنورة يترقبون ما تؤول إليه قضية الإمامة بعد الإعلان عن استشهاد الإمام موسى الكاظم عليه السلام، وتدلنا الروايات التاريخية على أن السلطة سعت بكل قوة لضرب التيار المعرفي والفقهي الشيعي بكل السبل، لكن تَنَبُّه الإمام الرضا عليه السلام، وكبار فقهاء مدرسة الوحي والإمامة كصفوان، وعبدالله بن المغيرة، والبزنطي، حال دون تنفيذ المخطط السلطوي.

وتتضح خطورة ذلك المخطط من خلال تأثيره الكبير في الوسط المعرفي والفقهي لدى أتباع أهل البيت عليهم السلام، فقد جذب إليه شخصيات ذات ثقل في الوسط الاجتماعي، أمثال محمد بن سنان ومحمد بن أبي نصر البزنطي -اللذين عرفا الحق بعد ذلك- وجعلت العديد يعيشون محنة المعرفة الصعبة للإمام الذي يجب اتباعه، وقد مثلت الأعوام بين ١٤٨هـ و ١٨٣هـ ذروة تلك المحنة.

إن تجاوز سنوات المحنة المعرفية أعطى أتباع مدرسة الوحي والإمامة حصانة قوية، ومعرفة دقيقة لما تتجه إليه الأمور، وبدأ في هذا الزمن تكثيف الجهد المعرفي من خلال التصنيف في كافة العلوم، وبالأخص تصنيف الأصول والكتب التي تحتوي على معارف وعلوم الأئمة الأطهار عليهم السلام، فقد بدأ الاهتمام بحديث أهل البيت عليهم السلام، وكثر المحدثون والطالبون للحديث، كما نلحظ ذلك في تلك الروايات التي وصفت وجود أكثر من عشرة آلاف محدث في مدينة نيسابور، وقد كتب العديد منهم الحديث المعروف بحديث السلسلة الذهبية[٢٢].

وممن عايش سنوات المحنة أحد الفقهاء الذين أثروا بشكل واضح فيما بعد في الواقع

المعرفي لمدرسة الوحي والإمامة، وهو أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي(١٥٦-٢٢١هـ)، الذي عَدَّه الفقهاء في عصر متأخر ممن أجمعت الطائفة على تصحيح ما يصح عنهم من أصحاب الكاظم عليه السلام وابنه الرضا عليه السلام، والبزنطي نسبة إلى الدولة البزنطية الواقعة شمال دمشق الشام وهي أرمينية وأهلها هم البيزنطيون، وقد غزاهم المسلمون سنة ٢٩هـ، وإلى بعض بلدان تلك الكورة الواسعة تنسب قسم من الثياب وتجلب منها إلى الآفاق فتباع فيها[٢٣].

ونسبته الأخرى، السكوني نسبة إلى السكون من قبيلة كندة إحدى القبائل العربية التي استوطنت الكوفة بعد أن مَصَّرها المسلمون في عهد متقدم، واشتهر بين علماء الرجال كونه سكوني، لكن بعضهم عَدَّه مولى السكوني، وآخرون عدوه من ولد السكون كما روى الطوسي في اختيار معرفة الرجال، حيث قال: إسماعيل بن مهران بن محمد بن أبي نصر وأحمد بن محمد بن عمرو بن أبي نصر كانا من ولد السكون[٢٤]، وبالتأكيد ان نسبته للسكوني سواء عد أحد مواليهم أو من صميم نسبهم، لها أهمية في معرفة المحيط الاجتماعي الذي يتأثر به أحمد في ميوله المعرفية والسياسية كما سوف يتضح.

البزنطي والتأثر بحركة الوقف

عند تعرض علماء الرجال لسيرة البزنطي يصفه الجميع بأنه كان عظيم المنزلة عند الإمام الرضا عليه السلام والإمام الجواد عليه السلام، وتعضد المرويات التاريخية هذه الحقيقة، لكن لا يعني ذلك أن التاريخ المعرفي للبزنطي كان متوافقاً دائماً مع مدرسة الوحي والإمامة، إذ تأثر البزنطي بالحركة القوية التي شنها الواقفة عام ١٨٣هـ، حيث استقطبت هذه الحركة فقهاء وعلماء لهم مكانتهم في المجتمع الكوفي، بل تأثر بحركة الوقف بيوتات علمية رفيعة كما هي حال أسرة السكون العلمية، فقد مال أغلبهم للواقفة وتبنوا أفكارهم، وكان أحمد آنذاك لا يزال شاباً لم تكتمل عنده أصول المعارف لمدرسة الوحي والإمامة، وبالطبع فإن تأثره سوف يكون سريعاً كما أن رجوعه عن تلك الأفكار سوف يكون أسرع.

ينقل لنا أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي كيف كان تأثره بحركة الوقف فيقول: إني كنت من الواقفة على موسى بن جعفر عليه السلام، وأشك في الرضا عليه السلام، فكتبت إليه أسأله عن مسائل ونسيت ما كان أهم (المسائل) إلي؟ فجاء الجواب عن جميعها، ثم قال: وقد نسيت ما كان أهم المسائل عندك، فاستبصرت، ثم قلت له: يا بن رسول الله أشتهي أن تدعوني إلى دارك في أوقات تعلم أنه لا مفسدة لنا من الدخول عليكم من أيدي الأعداء، قال: ثم بعث إلي مركوباً في آخر يوم، فخرجت إليه، وصليت معه العشاءين، وقعد يملي عليَّ من العلوم إبتداءً، وأسأله فيجيبني، إلى أن مضى كثير من الليل، ثم قال للغلام: هات الثياب التي أنام فيها، لينام أحمد البزنطي فيها، قال: فخطر ببالي أن ليس في الدنيا من هو أحسن حالاً مني، بعث الإمام مركوبه إلي، وقعد إلي، ثم أمر لي بهذا الإكرام!

وكان قد اتكأ على يديه لينهض، فجلس وقال: يا أحمد لا تفخر على أصحابك بذلك، فإن صعصعة بن صوحان مرض فعاده أمير المؤمنين عليه السلام وأكرمه، ووضع يده على جبهته، وجعل يلاطفه، فلما أراد النهوض، قال: يا صعصعة لا تفخر على إخوانك بما فعلت، فإني إنما فعلت جميع ذلك لأنه كان تكليفاً لي[٣٥].

يبرز هذا النص العديد من المعطيات الهامة التي تكشف لنا ملامح الحياة لدى أتباع أهل البيت عليهم السلام، كما يبرز الحالة النفسية التي كان عليها أحمد بُعيد الإعلان عن نبأ استشهاد الإمام الكاظم عليه السلام، وفيما يلي بعض تلك المعطيات التي يبرزها هذا النص الهام:

١- الإيمان بإمامة الكاظم عليه السلام، والشك في الامتداد الرسالي المتمثل في الرضا عليه السلام، ويعود هذا الأمر لمجموعة من الأسباب منها:

أ - الوضع الاجتماعي الذي عاشه البزنطي حيث عرف السكون بالميل لزعماء الوقف، بل الذي يبدو أن بعضهم عُدَّ واقفياً على الإمام الكاظم عليه السلام مع كونه مات في حياته، ويعود ذلك لصعوبة رؤية الكاظم عليه السلام، ولشبهات معرفية وقعت في الوسط النخبوي للسبب ذاته، كما نقل الوحيد ذلك عن سماعة بن مهران، حيث قال: الواقفة صنفان، صنف منهم وقفوا عليه في زمانه بأن اعتقدوا كونه قائم آل محمد صلى الله عليه وآله وذلك لشبهة حصلت لهم مما ورد عنه وعن أبيه عليهما السلام: أنه صاحب الأمر، ولم يفهموا أن كل واحد منهم صاحب الأمر -يعني الإمامة- ومنهم سماعة بن مهران لما نقل: أنه مات في زمانه[٣٦].

ب- كون أحمد شاباً في مقتبل العمر، حيث كان عمره عند استشهاد الإمام الكاظم عليه السلام ست وعشرين سنة، وبالتأكيد يكون التأثر كبيراً بالأفكار والآراء السائدة في المجتمع وبالأخص المحيط العائلي القريب منه، إذ كما عرفنا كان أغلب عائلة السكون تميل لزعماء حركة الوقف، وقد بقي ذلك مدة ليست بالقصيرة كان لأحمد فيما بعد الفضل في بث المعرفة السليمة تجاه الإمام الرضا عليه السلام والجواد عليه السلام ورجوع العديد منهم عن تلك الأفكار المنحرفة.

٢- وجود علاقة سابقة مع الرضا عليه السلام، الأمر الذي يوضحه كتابة رسالة للإمام وطلب رؤيته وزيارته في بيته.

٣- تمثيل اختبار الرضا عليه السلام في أمر الإمامة بأسئلة معرفية وبدلالات واقعية، حيث قال: يا بن رسول الله أشتهي أن تدعوني إلى دارك في أوقات تعلم أنه لا مفسدة لنا من الدخول عليكم من أيدي الأعداء، حيث رأى النجاة من السلطات المستبدة -التي بثت جواسيسها في كل زقاق- دلالة وبرهاناً على كونه الإمام، كما يبرز الواقع الاجتماعي المتوتر حيث عيون السلطة ترقب الموالين لأهل البيت عليهم السلام، وتفسد وتعكر صفو حياتهم.

٤- التوتر المعرفي حيث كان فكر أحمد البزنطي مشحوناً بالتساؤلات المعرفية، ويتضح

ذلك من نسيان أهم ما كان يريد السؤال عنه، مع كون الرسالة حملت العديد من التساؤلات كان أهمها أمر الإمامة بعد أبيه عليهما السلام.

٥- لم تكن الشبهات التي جعلت أحمد يقول بالوقف مقنعة، كما اتضح ذلك من سرعة الاستجابة لنداء الفطرة الذي يدعوه للتسليم بأمر الإمامة، فقد قال: فاستبصرت، فلو كانت تلك الشبهات ذات جذور عميقة لم تكفه تلك الدلالة وهي الإجابة عما جال في خاطره، كما حدث للبعض الذي رأى العديد من البراهين، لكن النفس قد غرقت في بحر من الشبهات والضلالات، كما حدث للإمام الرضا عليه السلام نفسه مع أحد البصريين في البصرة.

٦- وجود الإمام خارج المدينة، حيث قال: ثم بعث إليَّ مركوباً في آخر يوم، فخرجت إليه، ويبدوا أن وجود الإمام خارج المدينة كان لأمرين: أحدهما الاجتماع بصفوة الأتباع، كما سوف نلاحظ ذلك في نص آخر، والآخر الابتعاد عن عيون السلطة، وكانت منطقة اللقاء قرية خارج المدينة تسمى صرنا، وهي قرية أنشأها أبو الحسن موسى عليه السلام، وبها ولد الإمام الهادي عليه السلام[٢٧].

٧- مكانة أحمد البزنطي عند الإمام عليه السلام حيث أبقاه دون غيره من الأتباع الذين دخلوا معه على الرضا عليه السلام كما يتبين ذلك من نص آخر، حيث قال: دخلت على أبي الحسن عليه السلام أنا وصفوان بن يحيى، ومحمد بن سنان...[٢٨]، كما ألبسه عليه السلام ثيابه الخاصة به التي ينام فيها، وأمر الغلام بجلب فراشه الذي ينام عليه، الأمر الذي زاد من غبطة وسعادة أحمد وعَدَّ ذلك ميزة تفرد بها دون باقي الأتباع، مما جعل الإمام عليه السلام ينبهه لما وقع فيه مما قد يوقعه في سوء فهم مع بقية الأصحاب، فقال له: يا أحمد لا تفخر على أصحابك بذلك.

٨- إخراج أحمد من المحنة المعرفية التي أوقعته في تيار الواقفة، وقيام الإمام بالتأصيل المعرفي، وبناء ركائز مدرسة الوحي والإمامة في عقلية أحمد، وأهمية تلك المعارف وعمقها، مما يجعله يزداد فرحاً وسروراً، ويخرج متيقناً بعظمة الإمام ومكانته العظيمة عند الله سبحانه وتعالى، حيث قال: وقعد يملي عليَّ من العلوم ابتداءً، وأسأله فيجيبني، إلى أن مضى كثير من الليل، وقوله: فخطر ببالي أن ليس في الدنيا من هو أحسن حالاً مني، بعث الإمام مركوبه إليَّ، وقعد إليَّ، ثم أمر لي بهذا الإكرام.

وقد بقي أحمد على اتصال بالإمام عليه السلام طيلة حياته، فقد مكث مدة في المدينة يأخذ العلوم والمعارف الحقة من إمامه، وحتى بعد أن أصبح الإمام عليه السلام ولياً للعهد وذهب لخراسان حيث سكن قرب المأمون العباسي، كان أحمد يراسله ويبعث إليه بأخبار المجتمع الكوفي، ويسأله عن المعارف والعلوم المختلفة[٢٩]، كما يبعث له الإمام بأوامره وتعاليمه ونصائحه.

البزنطي والتيارات الفكرية

عاش البزنطي متنقلاً بين الكوفة وبغداد والمدينة والبصرة، وكانت له تجارة ببغداد، لكن منزله ومقامه في الكوفة، وقد كانت تنقلاته بين هذه المدن وغيرها، تبرز له المشهد الثقافي والفكري الذي كان سائداً آنذاك، وبالأخص بين أتباع مدرسة الوحي والإمامة، وبما أن الكوفة وبغداد كانتا مركز الحركة المعرفية في ذلك الزمن، فإنه اطلع على تلك المعارف المختلفة التي تسربت للمجتمع الكوفي، وكان الكثير منها يثير لديه علامات استفهام يحتاج للإجابة عليها بصورة تزيل الشك وترفع اللبس.

ومن الأفكار التي تسربت للكوفيين فكرة الجبر، التي تعني نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى، وقد سُمي القائلون بهذه الفكرة فيما بعد بالمُجَبِّرة، وتعددت الاتجاهات الجبرية بالنسبة لإضافة الفعل لله إلى قسمين رئيسين هما:

الاتجاه الأول: الجبرية الخالصة، وهي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً.

الاتجاه الثاني: الجبرية المتوسطة، وهي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً[٣٠].

انطلقت الأفكار الجبرية التي تنفي الحرية الفردية للبشر وتنفي بالتالي المسؤولية عن كاهل الإنسان في واقع اجتماعي يعيش تأزماً في العلاقة بين الإنسان والسلطة التي أخذت تنحو باتجاه شرعنة الاستبداد السلطوي، إن البيئة الفكرية كانت مهيأة لقبول تلك الأفكار التي تنزع عن عاتق الإنسان مسؤولية التغيير والإصلاح، ولعل الأفكار الجبرية تسربت من عقائد ديانات وفدت على الحياة الفكرية للأمة، ومما يلفت الانتباه أن قادة الاتجاه الجبري كانوا بعيدين عن مراكز ثقل مدرسة الوحي والإمامة، فقد خرج الجهم بن صفوان (ت ١٢٨هـ/٧٤٥م) في مدينة ترمذ في آخر أيام الدولة الأموية، وباسمه تأسست فرقة الجهمية التي تؤمن بالاتجاه الأول في عقيدة الجبر.

وكان الجهم يرى أن الإنسان لا يقدر على شيء، ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور في أفعاله، لا قدرة له، ولا اختيار، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات، وتنسب إليه الأفعال مجازاً كما تنسب إلى الجمادات، كما يقال: أثمرت الشجرة، وجرى الماء، وتحرك الحجر، وطلعت الشمس وغربت، وتغيمت السماء وأمطرت، واهتزت الأرض وأنبتت، إلى غير ذلك، والثواب والعقاب جبر، كما أن الأفعال كلها جبر، قال: وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضاً كان جبراً[٣١].

وفي مدينة الري أسس الحسين بن محمد النجار (ت ٢٢٠هـ/٨٣٥م)، وهو من قادة المعتزلة مذهباً في الجبر والقول بأن الإنسان مجبر على أفعاله، وأن الله خالق أفعال العباد خيرها وشرها، حسنها وقبيحها، والعبد مكتسب لها[٣٢].

والمذهب الجبري الآخر أسس بنيانه ضرار بن عمرو (ت ١٩٠هـ/٨٠٥م)، وهو قاضي من كبار المعتزلة، وحفص الفرد، وهو من أكابر المجبرة، نظير النجار، ويكنى أبا عمرو، وكان من أهل مصر، وفي بدء أمره عُدَّ من المعتزلة ثم قال بالجبر ونفي حرية الإنسان واختياره، وقد سمي هذا الاتجاه باسم مؤسسه الأول ضرار، وأطلق على أتباعه الضرارية[٣٣].

إن القول بعدم الحرية ونفي مسؤولية الإنسان عن أفعاله هي من أخطر الأفكار التي ظهرت داخل تيار المعرفة الدينية لدى المسلمين، لأنها تستدعي التطبيع مع الفكر المستبد والسلطة الظالمة لأن ما تمارسه من ظلم وتعدي إنما هو نتيجة فعل الله الذي يخلق أفعال العباد، بل إن ما تقوم به السلطات المستبدة من جور وظلم وتعسف وتعدٍّ كل ذلك مظهر وتجلٍّ لفعل الخالق المتعال.

وقد نما المذهب الجبري فيما بعد وتأسست قواعد فكرية واستدعي النص الديني لدعمه، وأصبح عقيدة راسخة لدى تيار كبير داخل المعرفة الدينية عرفوا باسم الأشاعرة، فقد أسس المعتزلي سابقاً الحنبلي تالياً، أبو الحسن الأشعري (٢٦٠- ٣٢٤هـ) مذهباً عرف باسمه واستقطب قطاعاً واسعاً لدى المدرسة السنية، وعلى الرغم من قيام الأشعري بإصلاحات في جوانب العقيدة السنية، وخاصة في مقابل أفكار الحشوية التي قالت بالتجسيم والتشبيه، إلا أن تلك الإصلاحات لم تكن كافية للقضاء على العقائد التي تسربت من الديانة اليهودية والنصرانية كالقول بجسمية الخالق، ووصفه بصفات المخلوقين، وغيرها.

وإذا كان هذا حال المنظومة المعرفية لدى مدرسة أهل الرأي، فإن مدرسة الوحي والإمامة أسست بنياها على الإيمان العميق بالحرية الفردية وأن الإنسان مختار في أفعاله، وأنه مسؤول عن كل صغيرة وكبيرة من أعماله، مما يستتبع القول بالجزاء ثواباً وعقاباً، لكن ذلك لا يعني عدم تأثر أتباع مدرسة الوحي والإمامة بتلك الأفكار التي بدأت تنتشر في المجتمع العراقي، وقد تنبه البزنطي لتلك الأفكار وبادر لتكوين رؤية معرفية للقضية، انطلاقاً من نص المعصوم، ويؤسس البزنطي بذلك واقعاً معرفياً قادراً على الوقوف في وجه تلك التيارات الفكرية وبالتالي تحصين العامة والخاصة من التأثر بها.

إن الفكر الشيعي بطبيعته غير ميال للمذهب الجبري، لأن الجبر يهدم أهم أركان الدين وهو أمر الإمامة، فالعقيدة الإمامية ترى ضرورة التغيير والإصلاح للواقع الفاسد وأنه مسؤولية إنسانية قبل أن يكون مسؤولية دينية، لذا ترى التاريخ الشيعي في الكثير من منعطفاته يمثل نهضة ضد المستبد الديني أو السلطوي، بل أساس الاعتقاد بضرورة خروج المصلح (المهدي بن الحسن عجل الله تعالى فرجه الشريف) هو أمر يناقض عقيدة الجبر في الصميم، ولذا ترى الفكر الشيعي في كل تاريخه لم يستطع التفاعل مع الاتجاه الجبري، ولم ينمو في داخله مشكلاً عقيدة أبداً.

ومع أن نمو فكرة الجبر داخل المجتمع الشيعي يعد مستحيلاً وصعباً إلا أن التأثر

بتلك الفكرة يمكن أن يتسرب لبعض المشتغلين بالهم المعرفي، ويحدثنا البزنطي عن ذلك قائلاً: قلت له -لأبي الحسن الرضا عليه السلام-: إن أصحابنا بعضهم يقولون بالجبر وبعضهم بالاستطاعة، فقال لي: اكتب قال الله تبارك وتعالى: يا بن آدم بمشيتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء، وبقوتي أديت إليَّ فرائضي وبنعمتي قويت على معصيتي، جعلتك سميعاً بصيراً قوياً، ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك، وذلك أنا أولى بحسناتك منك وأنت أولى بسيئاتك مني، وذلك أني لا أُسأل عما أفعل وهم يسألون، قد نظمت لك كل شيء تريد[٣٤].

الهوامش:

(١) النجاشي، الشيخ أبي العباس أحمد بن علي الأسدي الكوفي، رجال النجاشي، ج١ ص٤٣٩.
(٢) الكافي، ج٨ ص١٨١.
(٣) اختيار معرفة الرجال، ج٢ ص٤٦٩.
(٤) شبر، المرحوم السيد عبدالله، الأنوار اللامعة في شرح الزيارة الجامعة، ص١٧١.
(٥) اختيار معرفة الرجال، ص٥٥٢-٥٥٣.
(٦) رجال النجاشي، ص١٩٧.
(٧) النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم ج٦ ص٣.
(٨) الكافي، مصدر سابق ج١ ص٣١٩.
(٩) الكافي، ج١ ص٣٨٠.
(١٠) الكافي، ج ٨ ص٢٨٩.
(١١) المصدر السابق، ج ١ ص٤٧٥.
(١٢) الكافي، ج٢ ص٦٣٦.
(١٣) الطوسي، محمد بن الحسن، الفهرست، ط١-١٤١٧هـ، ص١٤٥.
(١٤) معجم رجال الحديث، ج١٠ ص١٤١.
(١٥) النوري، ميرزا حسين، خاتمة مستدرك الوسائل، ج٤ ص٨٠.
(١٦) الكافي، مصدر سابق، ج١ ص١٦٨.
(١٧) المصدر السابق، ج ١ ص٢١١.
(١٨) رجال النجاشي، مصدر سابق، ص١٩٧.
(١٩) الفهرست، مصدر سابق، ص٥١.
(٢٠) رجال النجاشي، مصدر سابق، ص٢٨١.
(٢١) راجع معجم رجال الحديث، ج١٠ ص١٤٤.
(٢٢) اجتمع لرؤية الإمام الرضا عليه السلام أهل نيشابور من الوزراء وأئمة الحديث والقضاة، وقد عد من المحابر أربع وعشرون ألفاً، راجع بحار الأنوار ج٤٩ ص١٢٧.
(٢٣) الحلي، العلامة الحسن بن يوسف، إيضاح الاشتباه ص٩٥.
(٢٤) اختيار معرفة الرجال، ص٦٢٨.
(٢٥) الرواندي، قطب الدين، الخرائج والجرائح، ج٢ ص٦٦٣.
(٢٦) اختيار معرفة الرجال، راجع حاشية رقم ٥ ص٥١٣.
(٢٧) الكوفي، إبراهيم بن محمد الثقفي، كتاب الغارات، ج٢ ص٨٩٠ بتصرف.
(٢٨) راجع اختيار معرفة الرجال، ص٦٢٦.
(٢٩) راجع تهذيب المقال، السيد محمد علي الأبطحي ج٣ ص٢٢٢.
(٣٠) الشهرستاني، محمد بن عبدالكريم، الملل والنحل ج١ ص٩٧.
(٣١) المصدر السابق، ج١ ص٩٨.
(٣٢) المصدر نفسه، ص١٠١.
(٣٣) راجع الملل والنحل، ج١ ص١٠٢.
(٣٤) الصدوق، محمد بن علي المعروف بالصدوق، كتاب التوحيد ص٣٣٨.